المثقف بين الحرية والالتزام (1)

وضع الفيلسوف الفرنسي ، جان بول سارتر ، في التصريح الذي ادلى به للزميلة «ليبراسيون» (عدد 13 تاريخ 2 دجنبر 1964) ، وضع قضية المثقف ، وضعا يستهدف تحديد موقفه وواجبه ازاء المجتمع الذي يعيش فيه وعلى ضوء نوعية هذا المجتمع من حيث بنياته والقوى المسيطرة فيه .

وكان طبيعيا ان تثير وجهة نظر سارتر التي ضمنها تصريحه ، تعليقات وردود فعل في بلادنا خصوصا وقد ركز آراءه حول واجب المثقف في البلدان المتخلفة بصفة عامة وفي المغرب بصفة خاصة .

ومن بين هذه التعليقات ، تعليق نشره الاستاذ عبد الكريم غلاب في جريدة «العلم» (عدد 5419 تاريخ 16 ديسمبر 1964) في ركن اليوميات، تحت عنوان : **«مناقشة مع سارتر في وضع المثقف ــ الاختيار ، لا الحيرة سمة الفلسفة الحديثة والانسان الثوري»** . وقد حدد الاستاذ غلاب موضوع المناقشة بعنوان اضافي هذا نصه : **«مع سارتر في حرية المثقف ومهمة المثقف»** .

وارى انه من المناسب هنا ــ تسهيلا على القارىء ــ ان اورد الفقرة التي ركز عليها تعليقه ، والفقرات التي تهمنا اكثر من غيرها من التعليق المذكور .

---

(1) ــ نشر هذا المقال في جريدة المحرر المغربية يوم 24 دجنبر 1964 .

اما فكرة سارتر التى علق عليها الاستاذ غـلاب فهى :

«ان المثقفين فى البلاد النامية — التى تخضع لنظام بورجوازى — يشكلون السند الحقيقى للامبريالية اذا هم اندمجوا . وعلى العكس من ذلك تاخذ المشكلة وجها آخر فى بـلاد مثل كوبا ، مثلا ، اذ يوجد هناك اتفاق بين الحكومة والمثقفين سواء من اجل الانتقاد او البناء . وعلـى المثقف بالطبـع فى هذا النوع من البلاد ان يحتفظ بدوره النقدى ، والا فان يكون مثقفا . الا انـه بسبب كونه متفقا مع الاتجاه العام فى بـلاده فسيكون نقده ايجابيا . والحقيقة ان وضعه ليس بالسهل ، فهو يعيـش فى حالة توتر بين رغبته وقبوله لنـوع من النظام و (بين) ضرورة احتفاظه بمهمته النقدية ، وهذا تناقض . ولكن يجب على المثقف ان يظل مناضلا دون ان يتجرد مع ذلك عن دوره النقدى» .

اما تعليق الاستاذ غلاب على هذه الفكرة فيهمنا منه بالدرجة الاولى الفقـرات التاليـة :

يقول الاستاذ غلاب ردا على سارتر : **«والحقيقة ان المشكلة ليست مشكلة اتفـاق بين المثقفين والحكومة على نقد بنـاء او على سكـوت هادف . ولكنها مشكلة الحرية فالمثقف مهما يكن الوضع الذى يعيـش فيه ، هو بين امريـن :**

اما ان يندمج فيفقد حريته ، حرية النقد او التاييد ، حريـة التعبير عن الراى الذى يومن به ، مهما يكن متفقا او مختلفا مع الوضع ، ومهما يكن الوضـع ليبراليـا او اشتراكيـا .

واما ان يابى الاندماج فيحتفظ بحريته ، حرية النقد والتوجيه سواء كان هذا النقد لوضع امبريالى او ليبرالى او اشتراكى» .

«والمثقف الذى يتخلى عن حريته او بعض حريته فى التوجيه والنقـد ليس امامه الا الاندماج ، وسواء لديه — بالنسبة لحريته كمثقف — اندمج فى الامبريالية او فى الاشتراكية فانهما سواء بالنسبة لفقدانه حريته» .

«وعندى ان مثقفا يحتفظ بحريته فى وضع ليبرالى او امبريالى فينتقد ويوجه ، خير من الف مثقف يسايرون وضعا اشتراكيا وهم متخلون عن

حريتهم فى النقـــد والتوجيه اى متخلون عن ذاتيتهـــم فى سبيل النظـــام الذى قبلـــوه وارتضـــوه» .

هذا ما قاله الاستاذ غلاب بالحرف الواحد . ومن ذلك يتضح :

1 ــ انه ــ اى غلاب ــ يضع «حرية» المثقف فوق كل اعتبـــار . وبعبارة اوضح ، يطرحها كـ «موضوعة» مستقلة عن الزمان والمكان ، كـ «حقيقة مجردة» تسمو على المجتمع وعلى الانسان نفسه .

2 ــ انه يرى ان المثقف يفقد «حريته» هذه اذا اندمج فى وضـــع «مهما يكن ــ المثقف ــ متفقا او مختلفا مع ــ هذا ــ الوضع» .

3 ــ يرى كذلك ان الوضع الامبريالـــى والوضع الاشتراكـــى متساويان لدى المثقف ما دامت ضالته هى حريته «حرية النقد والتوجيه» لهـذا الوضـــع او ذاك .

4 ــ ويوضح فكرته بقوله : ان اندماج المثقف فى الامبرياليـــة ، واندماجه فى الاشتراكية امران متساويان «بالنسبة لفقدانه حريته» .

حـــريـــة . . . ومهمـــة

واضح ان موضوع المناقشة هنا هو ــ كما حدده الاستاذ غلاب فى العنوان الاضافى الذى اوردناه آنفا ــ «حرية المثقف، ومهمة المثقف».

وواضح كذلك ان القضية الاساسية هنا هى : المفهوم الـــذى نعطيه للحرية .

واحب بادىء ذى بـــدء ان اسجل هنا انى **غير متفق** مع مفهـــوم الاستاذ غلاب للحرية ، او على الاقل فى المفهوم الذى عالج به قضيـــة حريـــة المثقف فى رده على سارتر . على اننى سارجىء هذه النقطـــة الى ما بعـــد لاطـــرح هذا السؤال :

لماذا الالحاح على حرية المثقف ؟ هل للمثقف ــ او هل ينبغى له ــ حريـــة اكبر واوسع من بقية افـــراد الشعب ؟

لا . ان الحرية ، لا تبقى حرية ، اذا كان فى التمتع بها تماير ، ومن ثمة لا يمكن ان نقول ان للمثقف حرية اوسع من حرية اى فرد من افراد

الامـــة . فالحرية تقتضي المساواة وهذه لا يمكن ان تقوم الا اذا كان جميع افـــراد الشعب يتمتعون بحريتهم . فالتفاوت او التفاضـــل او التـــدرج ، كل ذلك امـــور لا يمكن ان تتحقق في ظلهـــا حرية ما . اللهم الا حرية من يوجدون في اعلى درجات السلم في استعباد واستغلال من هم في اسفلهـــا .

ولذلك فالالحاح على حرية المثقف على اساس انه له «حق اكبر» فيهـــا يهـــدم الحريـــة نفسهـــا .

فلماذا هذا الالحـــاح اذن ؟

شيء واحد فقط ، يبرر هذا الالحاح ! وهو ان المثقف اقدر من غيره على ممارسة حريته . وهذا لا يعطيـــه امتيازا ، وانما يقلده مسؤولية ضخمة . نعم ان على كتف كل حر تقع مسؤوليات : اولاها مسؤوليته على حريته ، ولكن مسؤولية المثقف في هذا الشان اكبر واضخـــم : ان ما تكسبه اياه ثقافتـــه من رؤى واضحة ، وافق واسع ، وقدرة على تجلية الامور ، كل هذا يجعله مسؤولا على ثقافته وبالتالي على حريتـــه التي بدونها لا يكون لثقافته اية فعالية او جـــدوى .

ان حرية المثقف ليست «حرية ذاتية» جامدة ، بل انها تمتـــد الى الاخرين . انه ليـــس «مثقفا» لنفسه فقط ، بل ايضا لغيره من افـــراد الشعب ، فحريته اذن تكملة ضرورية لحرية من دونه ثقافة ، وفي هذا الاطار يمكن القـــول ان المثقف مسؤول عن نفسه وعن الاخرين كذلك.

فحرية المثقف اذن — وبخاصة في البلدان النامية — لا تعني الانفصال او «التعالي» عن المجتمع . بل على العكس من ذلك تماما. انها المعبـــر الذي يوصله الى الاخرين لتادية رسالته ازاءهم . وهي رسالة يتطلـــب منه اداؤها على احسن وجه ان ينزل الى صفوف الجماهير و «يندمج» معهـــا : في آلامها ، في آمالها ، في نضالها اليومي .

ان وضع حرية المثقف فوق كل اعتبار وضع خاطيء تمامـــا . لان المثقف انسان ، والانسان يعيش — راضيا او مكرها — في المجتمع ، وبالتالي فـــان حريته لا يمكن ان يكون لها اي معنى ايجابي الا في اطار هذه الحقيقـــة : حقيقـــة انسان المجتمـــع .

ليس لحرية الانسان اية دلالة خارج وجوده ، وليس لوجوده اى معنى خارج هذا العالم الارضى : عالم الزمان والمكان ، عالم البيئة والمجتمع والعصر ... وان يكون الانسان حرا — وهو بالضرورة يعيش فى مجتمع — معناه ان يختار لانه اذا لم يختر فذلك اما لجبن او لعجز ، وفى كلتا الحالتين فهو غير حر . وان يختار الانسان معناه ان يلتزم . وان يلتزم الانسان هو بمعنى ما من المعانى : ان يندمج .

واذن فاندماج الانسان — ونحن هنا بصدد المثقف الواعى لا يفقده حريته ، بل بالعكس : **ان اندماجه هو فى الحقيقة وفاء لحريته وتحقيق لها.**

مهمة النضال الواعى ...

والمثقف اليوم ، كأى انسان ، هو امام احتيارين اثنين لا ثالث لهما.

اما ان يحويه النظام الراسمالى النيبيرالى فيكون «مدمجا» فيه ، واما ان يرفض هذا النظام ، ولن يكون رفضه ايجابيا الا اذا اختار النظام الوحيد المقابل للراسمالية : **النظام الاشتراكى . والوفاء لحريته والالتزام لاختياره يتطلبان منه ان يندمج فى هذا النظام .**

ان فى الحياة صراعا ، وان فى المجتمع صراعا ، والمثقف وهو انسان لا يمكن تصوره الا كفرد من مجتمع وفى مجتمع ليس امامه الا ان يختار ايا من الطبقتين المتصارعتين يناصر .. انه لا يمكن ان يكون «فوق» الصراع لسبب بسيط هو انه ليس هناك انسان «فوق» المجتمع. وكل تلمس لموقف ثالث انما هو محاولة يائسة يدفع صاحبها اليها عجزه وجبنه .

وعلى ضوء هذا الصراع ، وذاك الاختيار نستطيع ان نحدد مهمة المثقف . **وهى مهمة ليست منحصرة فى النقد والتوجيه** كما يفهم ذلك بوضوح من كلام الاستاذ غلاب ، **وانما هى مهمة النضال الواعى ، مهمة توعية الجماهير وتحريكها ودفعها لتحقيق اهدافها بالوسيلة الوحيدة الفعالة : وسيلة النضال .**

ان المثقف ليس هو الخطيب على المنبر ، تنحصر مهمته فى الوعظ والارشاد حتى نبكى عن «حريته فى النقد والتوجيه» ومن ثمة نطالب له — ومنه — بعدم الاندماج . كلا . ان حريته لا يكون لها اى مدلول ايجابى

الا فى وسط الجماهير ، الا اذا اندمج معها ، وكان القوه الراسمالية للطريق الدافعة اليه .

نعم ان سارتر قد تحدث عن خطر «الاندماج» . ولكنه عندما اشار الى هذا الخطر كان يتحدث عن نفسه وامثاله من المثقفين **الذين يعيشون فى مجتمع راسمالى ليبيرالى امبريالى** . لقد رفض جائزة نوبل لانه رفض الاندماج فى ذلك المجتمع **ورفض المفاهيم والقيم التى يصدر عنها اصحاب الجائزة** . ولكن عندما تحدث عن الشعوب النامية وضع القضية وضعا آخر مغايرا . لقد طالب من المثقف **العمل فى صفوف الفلاحين لتوعيتها وجعلها تدرك بوعى دورها الثورى** . وهو عمل لا يمكن للمثقف ولا لاى آخر ان يقوم به احسن قيام **الا اذا اندمج كامل الاندماج فى هذه الجماهير** . كيف يوعيها اذا لم يندمج فيها !؟

ووضع سارتر ايضا قضية الاندماج بالنسبة للنظام ، بالنسبة للدولة . وهنا ايضا فرق بين وضع يسيطر فيه الاقطاع بنظام دولة شبه استعمارى تناضل ضده الجماهير ، ووضع اشتراكى يخدم مصالح الشعب واهدافه، ويستمد قوته من الجماهير نفسها ومن حمايتها له .

فى الوضع الراسمالى ..

فى الوضع الاول طرح المشكل الذى يعانيه المثقف بسبب كونه ليس فقط ضد النظام الراسمالى بل ومحاربا له ايضا من جهة ، ولكونه من جهة اخرى يشكل «اطارا» توجد البلاد فى اشد الحاجة اليه. ورای سارتر فى هذا الموضوع مفهوم ، وان كان غير واضح كل الوضوح لما يكتسيه المشكل من تعقيد وتشعب !

لقد اشار سارتر الى ان المشكل محلول بالنسبة للطبيب مثلا ، ومثل الطبيب : المعلم والاستاذ **وكل من يكون «اطارا» فى ميدان الخدمات الاجتماعية. ان هؤلاء رغم اشتغالهم فى اطار الدولة فهم لا يخدمونها وانما يخدمون الشعب** : لان الذى يتعلم هم ابناء الشعب ، ولان الذى يقدم لهم الطبيب الدواء هم افراد الشعب ... وان اتصال «المثقف الطبيب او المعلم» بهؤلاء لمما يساعده على اداء مهمته النضالية بين صفوفهم ، هذه المهمة التى لا تسقط عنه لكونه طبيبا او استاذا.

ان مهمته فى هذه الحالة مزدوجة . وهذه الازدواجيه هى التى قد تسبب له فى بعض التوتر وفى نوع من التناقضات ، وهما توتر وتناقضات لا مندوحة للمثقف من ان يعيشهما كما قال سارتر . ومعنى ان يعيش المثقف هذه التناقضات هو ان يركبها تركيبا يجعل منه محاربا ومناضلا فى واجهتين وبسلاحين بحيث يصبح «اطارا» للدولة فى خدمه الشعب .

ومتى تيسر للمثقف ان يقوم بهـذا الدور : دور «اطار» الدولة فى خدمة الشعب ، فان تلـك التناقضـات تجد حلها الصحيح ، ومن ثمـة لا خوف عليه من «خطـر الاندمـاج» .

ان المثقف لا يكون مندمجا مع النظام الا اذا كان اداة لهذا النظـام لاضطهاد الشعب او لكبت حرياته وتضييق الخناق عليه ، او كان يستغل قدراته لخدمة النظام خدمة معنوية عن طريق الاطراء والكذب ومحاولـة تضليل الناس . ان مثل هؤلاء ليسـوا بالمثقفين الذين نتحدث عنهم — ولا تحدث عنهم سارتر — ان هؤلاء فقدوا هويتهم فباعوا ضمائرهـم فاصبحوا عبيـدا لنظام الراسمالى الامبريالى وركائزه الواهيـة .

... وفى الوضع الاشتراكى

اما فى الوضع الثانى ، حيث يقـوم النظام الاشتراكى ، فـان سارتر لا يرى اى خطر على المثقف فى «الاندمـاج» بل ان هذا الاندماج لا يكون فى هذه الحالة اى اشكال ، لان الدولة والمثقف متفقان .

ويجب هنا ان نفهم الاتفاق ، لا على انه اتفاق بين خصميـن او متنافسين . فهو ليس اتفاقا تجاريا مصلحيـا ، ولا اتفاق هدنة ، بل ولا اتفاقاً من «اجل نقد بنـاء او على سكوت هادف». وانما هو «اتفاق» فى المبادىء والاهداف والاتجاه ، وما دام الامر كذلك فلا مجال هنا لفصـل المثقف عن الدولة ، والمطالبة له بالحرية ، كان الدولة التى هى منـه واليه تفقـده هذه الحرية !! ان الامر بالعكس ، فاتفاقه مع الدولة ، او اتفاق الدولة معه — وهما سيان — يمنحه كامل الحرية لاداء مهمـة كاحد «اطر» الدولة من جهة وكمناضل ثورى فى صفوف الجماهير مـن جهـة ثانيـة .

نعم ان سارتر قد الح على احتفاظ المثقف فى هذا الوضع بمهمته النقديـة . ولكن نقـده — كما قال سارتر نفسه — نقد ايجابى .

ولكن ما مجال هذا النقد الايجابى ؟

ان المثقف فى النظام الاشتراكى ، وهو المتفق بطبيعة الحال مع الدولة فى المبادىء والاهداف والاتجاه **تنحصر مهمته النقدية فى تعميق هاتيك المبادىء ، وبلورة تلك الاهداف ، وتحديد ذلك الاتجاه** . وهنا يقوم المثقف بمهمة الموجه لا للجماهير وحدها بل للدولة ايضا.

فلماذا الخوف اذن على حرية المثقف فى النظام الاشتراكي !؟

ليس هناك خلاف بين المثقف الثورى وبين دولته الاشتراكية . **وكل ما يمكن ان يكون هناك هو «اختلاف» فى تقدير المرحلة وتحديد الاساليب**، مصدره ما قد يتسم به المثقف غير المتقلد لمسؤولية الحكم من اندفاع او ما قد يتسم به الحاكمون من مداراة وترو تفرضهما الطبيعة السياسية لمهمتهم ، او تقضى بهما الظروف المحيطية والخارجية . **ومن شأن هذا الاختلاف ان يفسح المجال لحوار بين المثقفين والحاكمين وهو حوار تقتضيه ديناميكية وحركية النظام الاشتراكى نفسه .**

ومن النكران للحقيقة ان نقول ان مثل هذا الحوار «مفقود» فى الدول الاشتراكية ، والا **فماذا يجرى من كلام داخل اللجان المركزية ، بل فى الخلايا ايضا ، كما فى برلمانات هذه الدول ؟ ولماذا نسمع من حين لآخر باستبدال حكام بآخرين، بل بتبديل خطط باخرى فى هذه الدول ؟!**

حرية « المدن الفاضلة »

انه لمما يؤسف له حقا ان يقرن الاستاذ علاب وجود النظام الاشتراكى بفقدان الحرية الى درجة انه يفضل «مثقفا يحتفظ بحريته فى وضع ليبرالى او امبريالي على الف مثقف يسايرون وضعا اشتراكيا وهم متخلون عن حريتهم فى النقد والتوجيه...»

ان الاستاذ غلاب باتهامه الوضع الاشتراكى بكبت الحرية لا يفهم موقفه هذا الا انه فى عمقه معاد للاشتراكية او انه متاثر الى حد بعيد بالدعايات الاستعمارية التى تصور النظم الاشتراكية كمجازر للحرية ... على انها حقا مجازر لـ «الحرية» كما يفهمها الرأسماليون والامبرياليون ، «حرية» الانسان فى استعباد واستغلال اخيه الانسان.

واذا لم يكن لا هذا ولا ذاك فان الاستاذ غلاب يصدر ولا شك عن مفهوم طوباوى خيالى للحرية. وهو مفهوم بورجوازى «بورجماجى» على كل حال .

ذلك لان الاستاذ غلاب يضع الحرية — كما اشرنا الى ذلك آنفا — فوق كل اعتبار. وبعبارة اخرى يطرحها كـ «فكرة مثالية» لا نجد لها مكانا الا فى «العالم المعقول» عالم افلاطون وعالم اصحاب «المدن الفاضلة»، التى اسبغوا عليها جميع ما يمكن ان يراه المرء من سعادة ورفاهية فى احلامه اللذيذة !!

وبما ان مثل هذه «المدن الفاضلة» التى تجعل الانسان يحلق «فى ضلال التيه قد انتهى اجلها» كما قال الاستاذ غلاب نفسه ، فان «خوف» المثقف على «حريته» اذا اندمج فى وضع اشتراكى **لا يمكن ان يفسر الا على انه خوف من جانبه — اى المثقف — على ما قد يكون يتمتع به من «وضعية حسنة» ومن امتيازات وملذات وبالتالى خوف على وضعيته : وضعيته البورجوازية . فحريته اذن ليست «حرية مطلقة» كما قد يتخيل ، لانه ليست هناك حرية مطلقة ، وانما هى «حريته» فى ان يعيش بورجوازيا .**

والمثقف الذى من هذا النوع — المثقف البورجوازى — ذكى بطبيعة الحال ، فهو لا يسمح بتيارات التحرر والتقدم **تمر امامه دون ان يمد اليها يدا ، ولكنها يد مشلولة مغلولة مربوطة الى الواقع الذى ابتلعه ، الواقع البورجوازى** . وهو عندما ينكشف له ذكاؤه عن فشل، يحاول ان يجد لنفسه متنفسا من الحالة البئيسة التى هو فيها فتراه **يحاول ان «يتعالى» ويجعل نفسه فوق الجميع سابغا على نفسه صفة «الناقد الموجه» وكانه فرد الله المختار من بين شعب الله المختار «الموصى» على الجميع !!**

على اننى عجزت ، والحق يقال ، عن فهم منطق الاستاذ غلاب فى عبارته التى يقول فيها «وعندى ان مثقفا يحتفظ بحريته فى وضع ليبرالى او امبريالى لينتقد ويوجه ، خير من الف مثقف يسايرون وضعا اشتراكيا وهم متخلون عن حريتهم فى النقد والتوجيه اى متخلون عن ذاتيتهم فى سبيل النظام الذى قبلوه وارتضوه» .

1 ــ اذا كان المثقف المحتفظ بحريته فى الوضع الليبرالى الامبريالى ينتقد ويوجه ، فيجب ان نتساءل ينتقد مـــاذا ؟ ويوجه الى اين ؟ واذا كان نقده سلبيـــا ــ وهذا ما يفهم هنا ــ فانه لا يمكن ان يصدر الا عن تشبعه بالنظـــام الاشتراكى لانه ليس هناك نظام آخر مضاد لليبراليـــة والامبريالية . واذا كان ذلك كذلك فلمـــاذا يكون خيرا من «الف مثقـــف يســايـــرون وضعا اشتراكيـــا» ؟!!

2 ــ كيف يمكن تصور مثقف قبل النظام الاشتراكى وارتضـــاه ــ وبالتالى اختاره ــ فسايره ، متخليا عن حريته وعن ذاتيته ، وبالتالـــى فاقدا حريتـــه !؟ ان يقبل الانسان نظاما ويرتضيه ويسايره معناه انـــه اختاره ، والاختيـــار لا يكون الا بحرية . فكيف نقول ان هذا الانســـان قد فقد حريته او تخلى عنها !؟

فى اعتقادى انه لا يصح ذلك الا اذا صح مثل هذا التعبير : «اختيار الانسان ــ اى حريته ــ يفقده حريته» وهو قول لا يوازيه الا قولنـــا «رؤيـــة الانسان تفقده بصره» او «وجود الانسان يفقده حياته» .

ان هذا ليـــس من التفكيـــر السليـــم فى شـــىء .